التأصيل للمشروع الإسلامي: مجموعة محاضرات ألقاها سماحة الإمام الخامنئي؛ قبل 47 سنة في مدينة مشهد، المحاضرة الحادية عشر: روح التوحيد رفض العبودية لغير اﷲ..

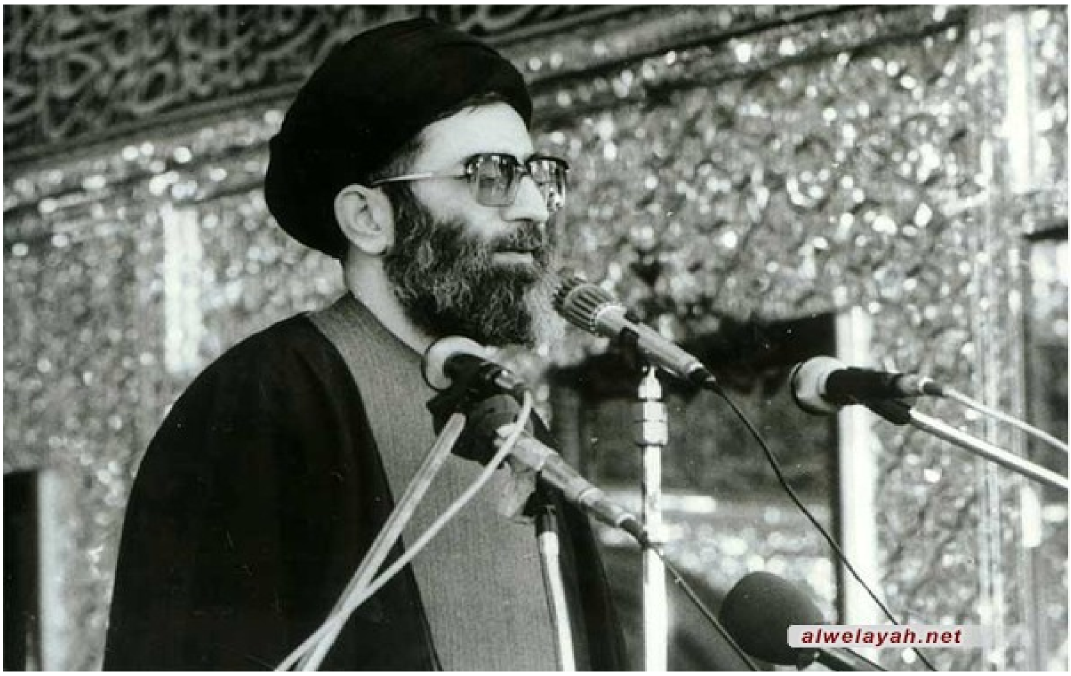

التأصيل الإسلامي؛ روح التوحيد رفض العبودية لغير اﷲ.. المحاضرة الحادية عشر من سلسة محاضرات ألقاها سماحة الإمام الخامنئي بمدينة مشهد قبل 46 سنة

روح التوحيد رفض العبودية لغير اﷲ

الأحد 12 رمضان المبارك 1394 هجرية

7/1353/7 هجرية شمسية

مرة أخرى أؤكد على أن التوحيد مسألة على غاية من الأهمية، ولا يجوز أن نمرّ عليها بعجالة، إذ إنها أساس العقيدة أوًلا، وهي الأصل المهم العملي الفردي والاجتماعي ثانيًا، ولأن المسلمين الموحّدين قلّما يقتربون من المفهوم الواسع للتوحيد ثالثًا. ففي محافل التعليم يذكرون التوحيد على أن ا واحد وليس اثنين. ويبقى هذا المعنى يرافقهم طول حياتهم.

الآيات التي تلوناها في بداية الجلسة توضح ما ذكرناه أمس أكثر. نقف اليوم عند «العبادة». ما يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى من العبادة هو التوجه بأداء الطقوس لمعبود مقدس له قوى فوق قوى عالم الطبيعة. هذا هو المعنى السائد للعبادة عند أتباع الأديان. لكنْ للعبادة معنى ثان، وهو الطاعة المطلقة دونما قيد أو شرط. وهنا مكمن الخطر في دنيا الموحدين. عليهم أن يحذروا من هذا النوع الثاني من العبادة. عليهم أن يحذروا من أن يكونوا تابعين إلى حدّ العبادة لما سوى ا. هذا ما يقرره القرآن الكريم. روي عن عدي بن حاتم الطائي[1] قال: أتيت رسول الله(ص).. وهو يقرأ (اتّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَ رُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مّن دُونِ ا وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ مَا أُمِرُوا إِلّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا)[2] حتى فرغ منها فقلت له: إنا لسنا نعبدهم. فقال: «أليس يحرمون ما أحلّ ا فتحرمونه ويحلّون ما حرّم ا فتستحلّونه؟!».

لقد كانت العبادة في ذهن عديّ هو هذا المعنى الرائج في الأذهان اليوم وهو التوجه بالدعاء مقرونًا بالتقديس القلبي، أو القلبي واللساني، أو القلبي واللساني والبدني كالصلاة. فكان من الطبيعي أن يعترض ويقول: نحن المسيحيين لسنا نعبدهم. لكن جواب الرسول(ص) كان: «أليس يحرّمون ما أحلّ ا فتحرّمونه ويحلّون ما حرّم ا فتستحلّونه»؟! هذه الإطاعة التامة المطلقة هي العبودية. وفي هذا المضمون وردت روايات عن أهل البيت أيضًا[3].

مفهوم العبادة في الثقافة القرآنية يشمل كل طاعة مطلقة للإنسان تجاه قوة تضع نفسها مكان ا سواء كانت سياسية أم دينية، أم في داخل الإنسان كالأهواء والشهوات.

وفي الرواية عن الإمام محمد بن علي الجواد(ع): «من أصغى إلى ناطق فقد عبَدَه» وهذا النص يوسّع دائرة العبادة لتشمل كل من أسلم قيادةَ سمعه إلى ناطق «فإن كان الناطق عن ا عزّوجل فقد عَبدَ

الله، وإن كان الناطق ينطق عن لسان إبليس فقد عبد إبليس»[4]، أي إن كان الناطق يتجه في حديثه نحو الله فالمستمع قد عَبَدَ الله، وأما إن كان ينطق باسم الشيطان، أي كان حديثه معارضًا لمنطق عبودية الله، فالإصغاء إليه عبادة للشيطان، لأن مثل هذا الناطق هو بنفسه شيطان.

«القانون» مما يكون طريقة للعبادة. إن كانت تبعيتك لقوانين النظام الاجتماعي التي قررها الله سبحانه فقد عبدت الله وإن لم تكن فقد انحرفت عن عبادته سبحانه.

انظر إلى أهمية التوحيد وأبعاده الواسعة!، لذلك فإن هدف الأنبياء جميعًا هو أن تكون أممهم موحدة. وليس التوحد سوى تحرير الإنسان من أغلال عبودية غير الله: (وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الأَغْلالَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ)[5].

حين يسود التوحيد بهذه النظرة في مجتمع من المجتمعات فإنه يقيم ذلك المجتمع في بُناه التحتية والفوقية وفق أصول وقيم محددة. وما أبعد هذا الفهم للتوحيد عن حصر معنى التوحيد بعبارة إن الله واحد وليس اثنين!!

قبل أن أدخل في استعراض آيات في التوحيد، أقف عند توصية ذكرتها مرارًا، وأرى ضرورة تكرارها لأهميتها ولشعوري بالمسؤولية إن لم أعد ذكرها. وهي ضرورة الرجوع إلى القرآن الكريم. ذلك البحر من أيّ النواحي أتيته[6]. اجلسوا على مائدة القرآن. ففيه زاد التوعية والكمال كما يقول أمير المؤمنين في عبارة نهج البلاغة: «ما جالس أحد هذا القرآن إلاّ قام بزيادة أو نقصانٍ، زيادةٍ في هدى أو نقصان في عمىً»[7].

أهمية هذه التوصية هي وجود مكائد لإبعاد الناس عن القرآن. ومن تلك هذه التي تقول لا يمكن أن يفهم القرآن إلاّ الأئمة المعصومون (عليهم السلام). هذه «كلمة حقّ يُراد بها باطل»[8] كما قال الإمام أمير المؤمنين(ع) في حقّ خوارج نهروان. نعم إن المعصوم بما يتحلّى به من سموّ وارتفاع هو النموذج الأسمى لفهم القرآن، بل إنه قرآن حيّ يمشي على الأرض. ولكن ذلك لا يعني أنني أنا وأنت لا نفهم شيئًا من القرآن، وأن نكون بعيدين عن كتاب الله العزيز.

أصحاب هذه المقولة محرومون من فهم القرآن، فلماذا يسعون إلى إبعاد الناس عن فهم القرآن؟! لماذا تمنعون الناس أن ينهلوا من هذا النبع الفيّاض؟! اعلموا أيها الإخوة والأخوات نحن اليوم بحاجة أمسّ إلى القرآن. كما قال رسول الله(ص): «فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم

بالقرآن»[9]، عليكم بالقرآن حين تخيّم الفتن وتلقي بظلامها على المجتمع، حينما نفتقد الرؤية لمعرفة الجادّة الصحيحة.. حينما لا ترى الأعين ما تكيده لنا عصابات النهب وقطاع الطرق. في هذه الحالة نحو أحوج ما نكون إلى مراجعة القرآن. وذلك لا يتحقق إلاّ بفهمه.

في هذه الجلسة تناولت قسمين من الآيات التي ترتبط ببحثنا، وأوصيكم أن تعودوا إلى القرآن. تعلّموا لغة القرآن.. تعلموا اللغة العربية، وإن تعذّر عليكم فهم العربية فتوسلوا بترجمة معاني القرآن. كونوا بالقرآن مأنوسين ومعه أصدقاء مرافقين. وكل ساعة تمرّ دون أنس بالقرآن هي خسارة في العمر وحسرة.

وفي قراءة القرآن وفهمه يجب ملاحظة طريقة القرآن في طرح المفاهيم. فهو ليس مثل التأليفات المعهودة التي تقسم النص إلى فصول بل إنه خطاب للنفس البشرية على مرّ العصور، فمن سياق القرآن نستطيع أن نجد الموضوع الذي نبحث عنه.

القسم الأول من الآيات هي من سورة الأنعام:

(أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِى حَكَمًا) والحَكَم هو الذي يقضي بين الناس، وقيل هو الحاكم. فهو خير الحاكمين. (أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَ الأَمْرُ)[10] هو الخالق، وهو الآمر.

(وَهُوَ الّذِى أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصّلا) أي مبينًا تبيينًا كاملًا لا خلط فيه.

(وَالّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنّهُ مُنَزّلٌ مّن رّبّكَ بِالْحَقّ فَلاَ تَكُونَنّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) فلا مجال لمن يعلم أن هذا القرآن نازل من رب العالمين أن يكون في تزلزل وتردد. بل في عزم وثبات. (وَتَمّتْ كَلِمَتُ رَبّكَ صِدْقًا وَ عَدْلًا لاّ مُبَدّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَ هُوَ السّمِيعُ الْعَلِيمُ) لقد أرسل رب العالمين رسله لتبلغ البشرية بالتدريج مرحلة الكمال. ثم جاء دور الرسالة الخاتمة لتفتح الطريق أمام حركة البشرية إلى اللانهاية: (إِنّا إِلَيهِ راجِعونَ)، وبذلك تمت كلمة ربك، ولا مبدّل لهذه الكلمات ولما وضعه للبشر من مقررات.

(إِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى الأَرْضِ يُضِلّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِن يَتّبِعُونَ إِلاّ الظّنّ وَ إِنْ هُمْ إِلاّ يَخْرُصُونَ)[11] انظر كيف يتدرج الخطاب القرآني. فقد بدأ في الآية

الأولى من المقطع الذي اخترناه بتقرير الحكومة والحَكَمية، وهي أَولى من غيرها.

ثم بعدها قرر مسألة عدم تبديل كلمات ا، فقد تمّت بالصدق والعدل ولا لأحد حقّ تبديلها. والآية التالية فيها التحذير من إطاعة أهل الأهواء والمشتهيات والظنون، فالطاعة وحده دون سواه.

طاعة المدارس الفكرية الأرضية فيها الضلال عن جادة الصواب، لأن أصحابها تقوم مشاريعهم على الظن: (إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ)[12] ولا تقوم إلا على أساس الأوهام: (إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)، ولقد رأينا انهيار كثير من هذه المدارس. فقد أقامت كيانها على النظريات والفرضيات مدعية أنها القادرة على إدارة المجتمعات البشرية، ثم تبين زيفها. بينما رب العالمين يضع أمام البشرية ما يقوم على أساس العلم ليهديها سواء السبيل (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)[13].

(فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اِ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِين) قد يستغرب الإنسان حين يتلو هذه الآية بعد تلك الآيات التي ركزت على موضوعات عامة ترتبط بإطاعة ا وعدم اتباع الظن وبشأن إتمام مسيرة الأنبياء. فما هذا الانتقال المفاجئ إلى الحديث عن أكل الذبيحة التي ذكر اسم ا عليها، وهي مسألة فرعية!!

في ذهني أفكار تجعل الآيات السابقة مرتبطة بهذه الآية، ولكن لا أقطع بها، فالمجال مفسوح لمزيد من التدبّر والتأمل. ما يخطر في الذهن هو:

الأول: في نظر ربّ السماوات والأرض تتساوى الأمور الكلية العامة والجزئية وتصبح في مستوى واحد، إذ إنه أسمى من هذا العالم وهو سبحانه في أفق يفوق تصور الإنسان. فهو حين يقرر ما يرتبط بسعادة الإنسان تستوي في ذلك المقررات الكلية والجزئية، وتستوي المقررات المرتبطة بالفرد أو المجتمع.

ثانيًا: لو أمعنا النظر في مسألة الذبح وتذكية الذبيحة وذكر ا عليها، فإنه يلفت نظرنا في البداية أن المشركين كانوا ينحرون في سبيل أصنامهم ومعبوديهم، وأن الأصنام الدنيوية تصرّ على ذكر اسمها في ديباجة أي عمل من الأعمال. وحين يقوم الإنسان بعمل من أجل هوى نفسه ولمصالحه الشخصية فإنه يتجه في عمله نحو ما خطر في ذهنه من ذلك العمل. أما حين يبدأ العمل باسم ا فإن اتجاه ذلك العمل يتناسب مع ما أمر ا. الآية تقرر أن يأكل الإنسان مما ذُكر اسم ا عليه. أي في تناول الطعام الضروري لحياة الإنسان يجب أن يكون الهدف هو «ا» لا ملء المعدة بالطعام. حين يكون الهدف هو إشباع

المعدة فإنك تبتعد عن اﷲ، أما إذا كان الهدف هو اﷲ فإن ملء المعدة لا يكون أصلاً بل الأصل هو اﷲ. لذلك يأبى الإنسان الموحّد أن يملأ بطنه بخلاف ما يرى اﷲ، حتى ولو بقي جائعاً.

ابدأ كل أعمالك الخاصة والعامة باسم اﷲ كي يتعين تجاه حركتك في هذه الأعمال.. كي تكون أعمالك في سبيل اﷲ: (قُلْ إِنَّ صَلاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِله رَبِّ الْعَالَمِينَ # لا شَرِيكَ لَهُ)[14] في كل أعمالي الصغيرة والكبيرة اتجه إلى اﷲ وحده دون سواه.

إذن ذكر اﷲ على الذبيحة «رمز» لتوجه الإنسان في احتياجاته الأساسية. إنه حكم فقهي له دلالاته على أن الإنسان في تلبية احتياجاته يجب أن يكون متجهاً في سبيل اﷲ. وحين تزيل عنك الجوع باسم اﷲ، وتدبّ الطاقة في وجودك بهذا الطعام، فإن استهلاك هذه الطاقة سيكون أيضاً في سبيل اﷲ، انظر بدقة.

(وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اﷲِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ)[15] فقد بيّن اﷲ سبحانه محرماته بالتفصيل في المأكولات إلاّ ما كان في حالة الاضطرار. ولا مجال في هذا التحليل والتحريم أن يتدخل من يضلّ الناس بدافع هواه. واﷲ أعلم بالمعتدين الذين يضلون الناس بأهوائهم بغير علم.

(وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ) هناك من الذنوب والآثام ماهي سيئاتها ظاهرة، مثل قتل النفس بدون حق. وهناك ما هي سيئاتها غير ظاهرة، ولا يعلم الإنسان حجم تبعاتها مثل التحدث بدون علم، والاتّباع بدون علم، والاستخفاف بذكر اﷲ، والطاعة لغير اﷲ.. مثل هذه الأمور يخال الإنسان أنها ليست مضرّة بالقدر الذي يجب الاحتراز منها. غير أن الآية تؤكد ضرورة اجتناب ظاهر الإثم وباطنه و (إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ).

(وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ) الشياطين وأقطاب الشرّ يوحون إلى أتباعهم والسائرين في ركابهم كي يجادلوكم، ويدخلوا معكم في مناقشات خادعة. وما هو موقفكم أنتم منهم؟ وهنا بيت القصيد. (وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ) بكل صراحة ووضوح إطاعة هؤلاء هو الشرك. إطاعة الشيطان الذي هو قطب مقابل الرحمن، وإطاعة أولياء الشيطان، أي عملائه ومأجوريه وأصدقائه يؤدي إلى الوقوع في حبائل الشرك.

القسم الثاني من الآيات مقتطف من سورة الشعراء. وفيه تبيين لكثير من المفاهيم بصورة حوار على الطريقة القرآنية في تجسيم ما يريد تقديمه من معارف. وبهذه الطريقة يستهدف القرآن الكريم أن يعمّق هذه المفاهيم في المشاعر والقلوب.

في هذه الآيات تصوير لمشهد من مشاهد يوم القيامة. وأسلوبه باستخدام الفعل الماضي، وهو بمعنى المضارع المحقّق الوقوع، كمافي قوله سبحانه: (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ)[16] الآيات التي نحن بصددها تقول:

(وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ # وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ # وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ # مِن دُونِ اللهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ # فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ # وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ)[17].

فالجنة قد أصبحت في متناول المتقين، وبُرزت جهنم للضالين المخدوعين. ثم يتجه السؤال للغاوين يقول لهم: أين هؤلاء الذين كنتم تعبدون من دون الله؟ أين تلك الأقطاب التي انشدّت قلوبكم إليهم.. انظروا إلى تعبير (تعبدون).. تُرى مَنْ هؤلاء الذين كانوا يعبدونهم؟ من هنا يتبين معنى العبادة. هل يستطيع هؤلاء المعبودون أن يساعدوكم أو يساعدوا أنفسهم؟ من الواضح أن هؤلاء يحتاجون إلى مساعدة.. أي إنهم بشر.. من نوع الإنسان، لا من نوع الحجر والخشب. هؤلاء المعبودون والضالون المخدوعون بهم، وجنود إبليس وأعوانه الذين سعوا لإضلال الناس.. هؤلاء جميعًا يلقون على وجوههم في نار جهنم.

ثم ينتقل المشهد إلى اختصام بين هؤلاء في جهنم:

(قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ # تَاللهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ # إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ # وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ # فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ # وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ # فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ # إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ).

في هذا الاختصام يحاول كل فريق أن يلقي باللائمة على الفريق الآخر: المعبودون والغاوون.

والكلام هنا للغاوين المخدوعين الضالين يفهمون ويقسمون أنهم كانوا في ضلال مبين، ويأسفون على ما فاتهم من صحوة ووعي ليفهموا أنهم كانوا منحرفين. يقولون لمعبوديهم: إنا كنا نجعلكم في رتبة رب

العالمين. كنا نخشاكم بينما كان ينبغي أن نخشى رب العالمين. كنا نطيعكم بينما كان الواجب أن نطيع ربّ السماوات والأرض. كنا نتقرب إليكم بدل التقرب من الإله الحق. كنا نرتزق منكم بينما الأرزاق بيد فاطر السماوات والأرض.

يقولون قد أضلنا المجرمون. وقد تخلوا عنا اليوم، فليس لنا من يشفع لنا وليس لنا صديق حميم.

عندئذ يتمنون أن تكون لهم عودة إلى الحياة الدنيا ليكونوا من المؤمنين. هذا الاختصام فيه آية ودلالة على تجربة مرّ بها هؤلاء الغاوون حيث لم يكن أكثرهم مؤمنين.

في هذه الآيات حديث عن أشخاص كان الناس يعبدونهم. وبإمعان النظر نرى أن هذه العبادة ليست سوى اتباع هؤلاء وجعلهم في مرتبة اﷲ في طلب ما كان يجب أن يطلبوه من اﷲ، وفي طاعة تلك الأوامر التي كان ينبغي أن ينفذوها من أجل رضا اﷲ.

والحمد ﷲ رب العالمين.

---

[1] ـ عدي بن حاتم الطائي، تولى زعامة عشيرته بعد والده، أسلم في التاسعة من الهجرة متأثرًا بأخلاق رسول اﷲ. ثم كان مع الإمام علي في الجمل وصفين والنهروان. وقدم أبناءه الثلاثة شهداء في صفين، وتوفى سنة 67هـ.

[2] ـ التوبه/ 31

[3] ـ تفسير نور الثقلين، ذيل الآية 31 من سورة التوبة.

[4] ـ تحف العقول، ص 456عن الإمام الجواد (ع).

[5] ـ الأعراف/ 157

[6] ـ هو البحر من أي النواحي أتيته فَلـُجـّته المعروف والبحر ساحله.

[7] ـ نهج البلاغة، شرح صبحي الصالح، الخطبة 176، المواعظ وفضل القرآن.

[8] ـ المصدر نفسه، الخطبة 40

[9] ـ الكافي، كتاب فضل القرآن، ج 2.

[10] ـ الأعراف/ 54

[11] ـ الأنعام/ 116

[12] ـ الجاثية/ 24

[13] ـ الأنعام/ 117 - 118

[14] ـ الأنعام/ 162 - 163

[15] ـ الأنعام/ 119 - 121

[16] ـ القمر/ 1

[17] ـ الشعراء/ 90 - 103